

من مظاهر التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني (1519-1830م)؛ هجرة العلماء والطلبة الجزائريين إلى تونس أنموذجا.

أ.د/ بوسليم صالح / جامعة غرداية

أ.ة/ محممة عائشة / جامعة غرداية

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز جوانب من مظاهر التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني، حيث تناولت موضوع هجرة العلماء والطلبة الجزائريين إلى تونس أنموذجا، وذلك من خلال الوقوف على دوافع هجرة العلماء أو الرحلات العلمية للطلبة الجزائريين والتعريف بأهم المراكز الثقافية التي استقروا بها بتونس؛ كإحدى حواضر بلاد المغرب ليحصلوا على الإجازات العلمية من كبار العلماء، ولينقلوا ما عندهم من علوم ومعارف إلى تلك الديار التونسية.

وخلصت الدراسة إلى التأكيد، بأن تلك الرحلات العلمية بين البلدين، قام بها طلاب العلم إيمانا واحتسابا، يوحد بينهم ذلك الإحساس العميق والنبيل، ويجدوهم نهم علمي متأجج. كما ساهمت قوافل الحجيج في بعث التواصل الثقافي بين الجزائر وتونس.

الكلمات المفتاحية: التواصل الثقافي؛ الجزائر؛ تونس؛ العهد العثماني؛ الرحلة في طلب العلم؛ هجرة العلماء.

Summary:

The aim of the present study is to show part of cultural communication events between Algeria and Tunisie during the Ottoman era, we dealt with the immigration of Algerian

students and scientists to Tunisia as model, trying to reveal the reason that were pushed them for immigration and going on scientific trip and what were the mean cultural places and centers where they had stayed in Tunisia, since it was one of the most known cradle of civilisation of the Maghreb and place of exchanging and taking knowledge to Tunisia land and taking it from well-known scientists.

We concluded though this study that scientific trip between the two countries was led by believers students seeking knowledge, united by the deep and noble sense and excited by the challenged path to the sciences, furthermore, the Hajj convoy has contributed in the culturel communication between Algeria and Tunisia.

Key-words: cultural communication, Algeria, Tunisia, Ottoman era, Scientific trip, Immigration of Scientists.

- توطئة:

تُعد الرحلة⁽¹⁾ في طلب العلم بين الجزائر وتونس مظهرًا من مظاهر التواصل الثقافي بينهما؛ ذلك أنَّ العلماء الجزائريين لم يكتفوا بتبادل الرسائل والإجازات مع نظرائهم في

تونس، كما لم يكتفِ بعض طلبة العلم في الجزائر، بما حصلوه في بلادهم، وإنما فضلوا الانتقال نحو تونس للالتقاء بعلمائها والاستزادة منهم.

وعلى الرغم من تردّي العلاقات السياسية بين البلدين في بعض الأحيان، والمتمثلة في الحروب الدائرة؛ بغرض ترسيم الحدود، إلا أن ذلك لم يؤثر في حركة انتقال الأفراد والجماعات نحو تونس واستقرار العلماء بها، بل وانشغالهم بالتدريس فيها وتقلدهم بعض الوظائف الهامة؛ كالإفتاء والقضاء. وبالإضافة إلى ذلك، فقد لعبوا أدوارا هامة في رسم الصورة الثقافية والاجتماعية وحتى السياسية لتونس.

والتساؤل الذي يتبادر إلى أذهاننا عن كنه هذه الرحلات العلمية لطلبة العلم وأهجرة العلماء الجزائريين إلى تونس؟ هل كانت بفعل التقارب السياسي والثقافي بين البلدين؟ أم يرجع ذلك إلى تسهيلات الحكام في هذا البلد أو ذاك لنشاطات العلماء وتقريبهم لهم؟ أم هي مجرد تطلعات من هؤلاء العلماء لما هو أفضل لهم في حياتهم الخاصة؟

وسنحاول في هذا البحث معالجة إشكالية البحث، من خلال محاولة الكشف عن دوافع هجرة العلماء والطلبة الجزائريين إلى تونس، وكذا التعريف بأهم المراكز الثقافية فيها ومن تردد عليها من الجزائريين.

أولا: دوافع هجرة العلماء الجزائريين إلى تونس خلال العهد العثماني:

شهدت الجزائر خلال العهد العثماني (1519-1830م) هجرة واسعة لعدد كبير من علمائها إلى الدول العربية والإسلامية، وخاصة نحو المغرب الأقصى وتونس وبلدان

المشرق العربي، ممّا أدى إلى تدهور الحياة الثقافية في قسنطينة وغيرها من الحواضر الجزائرية آنذاك⁽¹⁾.

وقد استقطبت الإبالة التونسية خلال العهد العثماني العديد من الطلبة والعلماء الجزائريين؛ لأسباب عديدة ومتنوعة، دفعت بمؤلاء العلماء إلى المغادرة، ومن بينها تراجع الحركة العلمية وتدهور التعليم في تلك المرحلة؛ حسب ما تؤكّده بعض المصادر⁽²⁾، وهي الظاهرة التي مسّت معظم العالم الإسلامي.

وبالرجوع إلى كتب الرحالة الجزائريين في هذه الفترة، نلاحظ بأن الكثير منهم قصد تونس؛ إما مروراً عليها في طريقه إلى الحج، أو للاستقرار فيها مدة من الزمن. ولهذا الرحلات دوافع عديدة، نذكر منها:

أ- الدافع الديني (أداء فريضة الحج):

لقد كان شغف الجزائريين بالرحلة نحو البقاع المقدسة لأداء فريضة الحج كبيراً جداً، إلى درجة أن الحجاج ومجرد انتهائهم من أداء مناسك الحج، واستعدادهم للعودة إلى موطنهم، نجدهم يشتاقون مجدداً إلى أداء المناسك ولذلك تعدّدت كتب الرحلات الحجازية⁽⁴⁾ التي تحدّثت عن الجزائر خلال العهد العثماني، والتي ترك لنا أصحابها تراثاً مهماً وصفوا لنا فيه رحلاتهم، التي ضمّنها مُشاهداتهم وسجّلوا بها ما صادفهم في طريقهم وفي المراكز التي أقاموا بها، انطلاقاً من خروجهم من مدن الجزائر، حتى وصولهم

إلى الحجاز. كما أودعوها أسماء المشايخ الذين لاقوهم وأخذوا عنهم من العلماء والصلحاء الذين التقوا بهم أو زاروا أضرحتهم⁽⁵⁾، بل وحتى أسماء الكتب التي قرأوها ودرسوها، وهم بذلك يضعون حلقات جديدة في سلاسل السند العلمي، ويحافظون على السنن الحميدة في نقل المعرفة، هذه السنن التي كانت من مميزات حضارتنا.

ونظرا لأن الإيالة التونسية-بحكم موقعها- كانت مسلكاً يمر من خلاله الحجاج، فكان ذلك حافزا للقيام بالرحلة إلى هذه البلاد ولقاء علمائها وخوض مناظرات علمية معهم، وزيارة المساجد الشهيرة، وليس هذا فحسب، بل إن من الجزائريين من زار قبور الأولياء والصلحاء في بعض مدن الإيالة التونسية، مثلما فعل أبو راس الناصري، عندما زار مدينة القيروان سنة 1214هـ/1799م؛ حيث زار أضرحة صلحاء المدينة في غضون أربعة أيام ودوّن كل ذلك في رحلته⁽⁶⁾.

ب) -الدافع العلمي (طلب العلم):

قد يتشابه هذا الدافع مع الدافع السابق؛ حيث أن إيالة تونس، كانت دائما محطة يتوقف عندها العابرون نحو بلاد المشرق، سواء لأداء فريضة الحج، أو للقيام برحلة علمية إلى تلك البلاد.

وقد تنوعت الدوافع، التي كانت تحدو بهم إلى القيام برحلاتهم، فكان منها الحرص على لقاء الشيوخ والاستفادة منهم واستجارتهم والرواية عنهم⁽⁷⁾.

وقد تميّز العلماء الجزائريون عامة، بكثرة رحلاتهم إلى منابع الفكر والثقافة، لإثراء معارفهم وتحصيل العلم ونيل الإجازات⁽⁸⁾. لذا فقد تغرّبوا عن الوطن، للقاء العلماء في

الأقطار المشرقية والمغاربية، ومن بينها تونس والأخذ عنهم، فتركوا لنا بموجب ذلك رحلات علمية؛ تتحدث عن المسائل العلمية التي كانت شائعة وقتها، والمناظرات والمناقشات، التي اشتركوا فيها، أو التي حضروها؛ دون أن يكون لهم فيها أي تدخل⁽⁹⁾.

أما العلوم، التي كانت تحوز على اهتمام الرحالة، فهي في الغالب العلوم الدينية وتليها العلوم اللغوية، بينما لم نجد اهتماما كبيرا في هذه الرحلات بالعلوم العقلية، كالفلك والرياضيات والطب وغيرها، اللهم إلا في رحلة ابن حمادوش الجزائري، الذي تعرّض لها بشكل واضح⁽¹⁰⁾.

ويجب أن لا يغيب عن أذهاننا أيضا بأن جامع الزيتونة، الذي كان جامعة علمية استحق أن يقصده القاصي والداني، للأخذ عن علمائه. وقد ساعدتهم في ذلك ترحيب الحكام والسكان والعلماء⁽¹¹⁾.

ج) - الدافع السياسي:

لقد كان الصراع بين الأتراك العثمانيين وبعض الدول الأجنبية، وخاصة إسبانيا؛ أحد أهم مميزات العهد العثماني في الجزائر؛ إذ استمر هذا الصراع قرابة الثلاثة قرون والنصف⁽¹²⁾، ذلك أنّ الدول الأجنبية سعت إلى إخضاع الجزائر بدعوى أنها وكر للقراصنة⁽¹³⁾، وبموجب ذلك هوجمت الجزائر مرات عديدة، مما أدّى إلى شيوع الاضطراب في البلاد وانعدام الأمن.

وقد أدت هذه الظروف ببعض العلماء الجزائريين إلى القيام برحلات نحو تونس وغيرها من البلدان، هروبا من هذه الأوضاع المضطربة، وبخفا عن الأمن والأمان.

ثانيا: أهم الحواضر العلمية التونسية التي استقطبت العلماء والطلبة الجزائريين خلال العهد العثماني:

يمكن القول بأن المدن التونسية، كانت في معظمها مقصدا للعلماء الجزائريين، غير أن البعض منها كان أكثر استقطابا من غيره لهؤلاء، ومن هنا يمكن الحديث عن ثلاث مدن رئيسية كانت قبلة للعلماء والطلبة الجزائريين في هذه الفترة، ومركزا للتبادل الثقافي بين الجزائر وتونس، ومن أهمها نذكر:

(أ) - مدينة تونس:

وبما أنها عاصمة الإيالة التونسية، ويوجد على أرضها جامع الزيتونة العريق، فمن الطبيعي أن تكون مقصدا للعلماء وطالبي العلم.

ومدينة تونس مدينة تجارية، أسسها الفينيقيون قبل تأسيسهم لقرطاج، وأطلقوا عليها اسم ترشيش⁽¹⁴⁾؛ بينما أطلق عليها الرومان تونيوتوم⁽¹⁵⁾. فتحها القائد حسان بن نعمان سنة 78هـ/697م. وقد عرفت هذه المدينة ازدهارا كبيرا في عهد دولة الأغالبة؛ وذلك بعد أن توسعت المدينة وتم بناء الأسواق حول جامع الزيتونة⁽¹⁶⁾.

وبعد هذا الهدوء والاستقرار الذي نعمت به في تلك الفترة، عمّت البلاد بعد ذلك بالفوضى، إثر زحف قبائل بني هلال على بلاد المغرب في القرن الخامس للهجرة/الحادي

عشر للميلاد، لذا اضطر أهلها إلى الاستنجاد ببني حماد⁽¹⁷⁾، فأرسلوا إليهم الأمير ابن خراسان، الذي أرسى فيها الحكم، كما ساهم في ازدهار المدينة مدة قرن ونصف⁽¹⁸⁾.

وسرعان ما اضطرت الأوضاع مرة أخرى في البلاد، بعد غزو النورمانديين⁽¹⁹⁾، فحماها منهم عبد المؤمن بن علي سنة 555هـ/1160م. وفي سنة 603هـ/1206م استقل بها الأمير عبد الواحد بن أبي حفص مؤسس الدولة الحفصية، وجعل من تونس مدينة للعلوم والعمارة والفنون، وقد ساعده في ذلك مسلمو الأندلس، الذين هاجروا إلى بلاد المغرب مع بداية حروب الاسترداد، بالإضافة إلى علاقاته الحسنة مع الدويلات الإيطالية⁽²⁰⁾.

وللإشارة، فقد كانت مراكز الإشعاع الثقافي في تونس؛ قبلة للطلبة والعلماء الجزائريين، الذين كانوا يتوافدون عليها قبل العهد العثماني. نذكر منهم على سبيل الذكر لا الحصر، قاسم بن منصور القسنطيني (ت882هـ/1477م)، ومحمد بن بلقاسم الأنصاري (ت850هـ/1478م)، الذي تولى منصب القضاء والإمامة والخطابة بتونس، والشاعر أحمد بن خلوف (ت905هـ/1499م)⁽²¹⁾

ومع مطلع القرن العاشر الهجري، تغيرت الأحوال الثقافية في مدينة تونس، نتيجة تدهور الأوضاع الداخلية وتعرضها للاحتلال الإسباني سنة 1535م⁽²²⁾، هذا الأخير الذي أثلّف خزائن الكتب واستباح معاهد العلم. وفي هذا الصدد، يذكر الشيخ عبد الكريم الفكون، بأن ملك إسبانيا شارل الخامس، لما احتل تونس أباح لجنوده اقتحام جامع الزيتونة، وقتل بعض علمائها في حلقات دروسهم، وكان من بين القتلى الشيخ أبو زكرياء يحيى الفكون (ت941هـ/1534م) جد والده⁽²³⁾.

وبالرغم من تردّي الأوضاع العامة في القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي في بلاد المغرب عموماً؛ نتيجة التحرّشات والحملات الاسبانية، والحروب التي خاض غمارها العثمانيون ضد الحفصيين، فإن ذلك لم يمنع رجال العلم وطلّبه من التنقل إلى تونس، وإن كان عددهم على العموم، قد عرف تراجعاً ملحوظاً؛ مقارنة بالعهد الحفصي. ومن العلماء الذين حافظوا على التواصل الثقافي مع مدينة تونس، يأتي في مقدّمهم:

1- قاسم بن يحيى بن محمد الفكون (ت 965هـ/ 1557م):

يعرف عنه أنه كان قاضياً بمدينة قسنطينة، التي نشأ وتعلّم على يد شيوخها⁽²⁴⁾، من أمثال الشيخ معّوش والشيخ الوزان، ثم أتمّ تعليمه بتونس حين انتقل والده إليها به، وهناك عُيّن إماماً بجامع البلاط. من مؤلفاته أن وضع حواشي على بعض الكتب⁽²⁵⁾، نذكر بعض الكرايس على توضيح ابن هشام، وهي غنية بالشروحات والتعليق التي جمعها من مصنّفات متعدّدة تختلف موضوعاتها العلميّة، وكان ممن تصدى للتفسير زمن مشيخة عصره. وتوفي سنة خمسة وستين وتسعمائة⁽²⁶⁾.

2- أبو مهدي عيسى الثعالبي (ت 1080هـ/ 1669م):

هو عيسى بن محمد بن عامر الجعفري، يعود أصله إلى إحدى نواحي وادي يسر (موطن الثعالبة) بالجنوب الشرقي من مدينة الجزائر، ولد في منطقة زاوية سنة 1020هـ/ 1611م، نشأ وترعرع بها، ثم انتقل بعدها إلى العاصمة ودرس على يد خيرة علمائها الفقه والحديث، من أمثال: أبو الحسن علي بن عبد الواحد الأنصاري دفين الجزائر، سعيد بن إبراهيم قدورة الجزائري، عبد الرحمن بن محمد الهواري⁽²⁷⁾. وبمرور الزمن

حظي بالتقدير من رجال السلطة العثمانية في الجزائر، وعلى رأسهم الباشا يوسف داي الجزائر الذي ضمّه إلى مجلسه؛ باعتباره فقيهُ ومحدّث⁽²⁸⁾.

كما قام برحلة إلى تونس، وأخذ عن علمائها الأجلاء، من أمثال الشيخ زين العابدين⁽²⁹⁾. وبعدها توجه إلى المشرق؛ فحج سنة 1062هـ / 1651م، واستقر في مكّة المكرمة مدّة من الزّمن؛ أين أخذ العلم عن القشاهلي، الزين الطبري، والبابلي. وآخر محطة في رحلته كانت مصر، التي أخذ عن علمائها، من أمثال القاضي شهاب الدّين أحمد الخفاجي، الأجهوري، والميموني. ليعود بعد ذلك إلى مكّة المكرمة؛ أين توفي سنة 1080هـ / 1669م⁽³⁰⁾.

خلف الثعالبي مجموعة من المصنّفات، نذكر منها: "كنز الرواة في درر الحجاز"، و"تحفة الأكياس في حسن الظن بالناس"، و"يواقيت المسموع" الذي جمع فيه كلّ شيوخه، الذين تتلمذ عليهم؛ فعرف بهم وبشيوخهم وحصر فيه كلّ مؤلّفاتهم، و"رسالة في مضاعفة ثواب هذه الأمة"، و"مشارك الأنوار في بيان فضل الورع من السُنّة وكلام الأختيار"، و"منتخب الأسانيد" خصّصه للحديث عن شيوخه، وأسماء رواة الإمام أبي حنيفة⁽³¹⁾.

3- أحمد بن قاسم البوني (ت 1139هـ/1726م):

هو أبو العباس أحمد بن قاسم بن محمد الساسي التميمي البوني الفقيه والمحدّث. الذي ولد عنابة (بونة) في أسرة ميسورة الحال سنة 1063هـ/1653م، وتوفي في بونة سنة 1139هـ/1726م⁽³²⁾.

بدأ أحمد تعليمه في مسقط رأسه على يد كلٍّ من والده قاسم وجدّه محمّد والشيخ إبراهيم بن التّومي. وبعدها واصل دراسته في تونس والمغرب الأقصى. وبعد أدائه فريضة الحج، عرج على مصر، وفيها أخذ عن علمائها، وقد تصدّر للتدريس بالأزهر الشريف⁽³³⁾. وعاد بعد ذلك إلى عنابة وتفرغ للتدريس والتأليف، فاخذ عنه مجموعة من علماء المدينة، من أمثال: عبد الرحمن الجامعي وعبد القادر الرّاشدي القسنطيني...⁽³⁴⁾

ومن آثاره الأدبية في مجال الشعر:

يذكر أن أحمد بن ساسي البوي كان واسع الثقافة، فإلى جانب ضلوعه في الفقه والحديث النبوي عرف عنه اهتمامه بالشعر، وبالأخص الشعر التعليمي. ومن بين قصائده المشهورة، أرجوزة⁽³⁵⁾ أرسلها إلى محمد بكداش⁽³⁶⁾ مهنتا إياه من خلالها بفتح وهران الثاني سنة 1120هـ/1792م. إضافة إلى قصيدة أخرى نظمها في مدح ووعظ الداوي محمد بكداش، وكان ذلك بطلب من هذا الأخير⁽³⁷⁾.

أما في مجال المصنّفات، فقد ترك البوي ما يفوق المائة كتاب، نذكر منها⁽³⁸⁾:

- الدرّة المصنونة في علماء وصلحاء بونة.

- فتح الباري في شرح غريب البخاري.

- نظم الخصائص النبوية.

- الالهام والانتباه في رفع الابهام والاشتباه.

- الثمار المختصرة في المناقب العشرة.

- الظل الوريف في الحث على العلم الشريف.
- تنوير السريرة بذكر أعظم السيرة.
- الذّخر الأسنى بذكر أسماء الله تعالى الحُسنى.

4- الفقيه عاشور بن عيسى القسنطيني (ت1074هـ/1664م):

هو عالم ورحالة من قسنطينة عاش بين عامي (984-1074هـ/1576-1664م)، قام برحلات في بعض الأقطار في المشرق، ولكنه أخيراً فضّل الاستقرار في تونس، وأخذ عن علمائها. تولى التدريس بجامع الزيتونة وتوفي بتونس. وقد ترك العديد من الكتب، من بينها: إعمال الفكر في ضبط لفظة القسطلاني وأبي بكر⁽³⁹⁾.

5- محمد صالح الرحموني (1152-1242هـ/1739-1826م):

هو أديب ونحوي. اسمه الكامل محمد الصالح بن سليمان بن محمد بن محمد بن أبي القاسم الطالب الرحموني العيسوي الزواوي. ينسب إلى أولاد رحمون في مشدالة. وقد خرج إلى تونس، وبها تعلم وبعد عودته درس في جبل بني عيسى ثم في جرجرة⁽⁴⁰⁾.
ومن آثاره العلمية، نذكر⁽⁴¹⁾:

-ميزان اللباب في قواعد الميزان والإعراب.

-الدليل على الأجرومية.

-شرح على الأزهرية.

(ب) مدينة القيروان:

كانت مدينة القيروان أول مدينة أسّسها المسلمون في المغرب الإسلامي، وكان الهدف من تأسيسها تثبيت أركان الفتح الإسلامي، ليس في إفريقية فحسب، وإنما في بلاد المغرب بأسرها⁽⁴²⁾.

ويعود سبب بناء هذه المدينة، إلى أنه بعد عودة معاوية بن حديج إلى مصر، تورد أهل إفريقية الذين كانوا قد التزموا بالطاعة له، ولذلك أرسل إليهم بالقائد عقبة بن نافع على رأس جيش قوامه عشرة آلاف فارس، ففتح الكثير من المدن، ولما وصل إلى قمونية استشار القادة الكبار في أن يؤسس مكان هذه المدينة معسكرا، فعارض هؤلاء في البداية نظرا لبعدها عن البحر، لكنهم اتفقوا بعد ذلك على أن تكون هذه المدينة معسكرهم، الذي ينطلقون منه نحو بقية المناطق لفتحها ونشر الإسلام فيها⁽⁴³⁾.

أما عن أسباب اختيار عقبة بن نافع، لبناء هذه المدينة البعيدة عن البحر، فتتلخص في الآتي⁽⁴⁴⁾:

- بُعدها عن الساحل، وهو ما يحميها من هجمات الروم،
- قربها من البادية لتكون منطلقا لنشر الإسلام بين الامازيغ،
- تأمين إمدادات الجيش وحماية وسائل المواصلات وهي الإبل.

وقد تمّ اختطاط مدينة القيروان سنة 50هـ/670م. أما أول ما بني فيها فكان المسجد الجامع ودار الإمارة، ثم توالى المساكن بعد ذلك، وأخذ الناس يقصدونها من كل

حذب و صوب، وبذلك انتشر فيها العمران، وتعدّدت فيها المظاهر الحضارية، التي استرعت انتباه الرحالة الذين مروا بها في فترات زمنية مختلفة⁽⁴⁵⁾.

ونظرا لتنوع مظاهرها الحضارية، واستقطابها للسكان أصبحت مدينة القيروان عاصمة لأفريقية خلال عصر الولاة، وظلت كذلك مدة إحدى عشر سنة بعد سقوط دولة الأغالبة وانتصاب دولة الفاطميين (العبيديين) سنة 296هـ/909م، ليتم بعد ذلك نقل العاصمة إلى مدينة المهديّة. وبعد تخريب مدينة القيروان سنة 449هـ/1057م من طرف أعراب بني هلال، أخذت مدينة تونس تبرز شيئا فشيئا كمركز ثقافي. وبالعودة إلى القيروان، فإن إشعاعها الثقافي ظل قائما خلال هذه القرون التي خلت⁽⁴⁶⁾.

وتُعد هذه المدينة ثاني الحواضر التونسية، التي استقطبت الجزائريين في العهد العثماني، ويرجع ذلك إلى ما تحويه هذه المدينة من مراكز ثقافية، أهمها الجامع الأعظم.

وتوالى الأحداث على مدينة القيروان، إذ تعرضت للهدم أيام حكم مراد داي (1100-1112هـ/1668-1700م)، ثم عرفت النهضة مجددا على عهد حسين بن علي (1117-1153هـ/1705-1740م)، بعد أن عمل على بناء ما تخدم منها، وخصّص لذلك الأحباس (الأوقاف) الكثيرة، ولكنها عرفت انتكاسة أخرى على عهد الباشا علي باي (1148 هـ - 1170 هـ / 1735 - 1756م)، نظرا لتأييد أهلها لعمّه حسين بن علي. وبعد أن تولى الحكم أبو عبد الله محمد باي بن حسين بن علي تركي (1170هـ-1172هـ / 1756 - 1758م)، أعاد بناء كل ما تخدم فيها⁽⁴⁷⁾.

ومن العلماء الجزائريين، الذين حافظوا على اتصالاتهم مع مدينة القيروان، نذكر منهم:

-أبو راس الناصري المعسكري الجزائري (ت1238هـ/1823م)

هو محمد أبو راس بن أحمد بن ناصر الراشدي علامة ومحقق في العلوم الإسلامية وحافظ للحديث النبوي. وكان مولده بقلعة بني راشد جنوب مدينة معسكر سنة 1150هـ/1737م⁽⁴⁸⁾.

تلقى القرآن الكريم على يد والده، ثم أخذ الفقه على يد شيخه عبد القادر المشرقي. وكان أبو راس الناصري ذا ثقافة واسعة في مجالات متعددة، منها الأدب والفقه والتاريخ. وقد حاز على هذه الثقافة بفضل جهود مشايخه، الذين كانوا مصدر فخر دائم له، ولذلك خصص لهم بابا في سيرته، بالإضافة إلى جهوده الشخصية في تحصيل هذه العلوم المختلفة⁽⁴⁹⁾.

لم يكتف أبو راس بما تعلمه على يد شيوخه في الجزائر، وإنما سعى إلى الاستزادة من علماء الأقطار الأخرى، ولذلك سافر إلى تونس، وفاس ومكة المكرمة والقاهرة، أين التقى بمشايخ أجلاء على غرار الشيخين مرتضى الزبيدي، والشرقاوي، اللذان أجازاه ولقباه بالحافظ وشيخ الإسلام⁽⁵⁰⁾.

توفي رحمة الله عليه في يوم 15 شعبان 1238 هـ الموافق 27 أبريل 1823 م، وقد تجاوز التسعين من عمره ودفن بمنطقة باب علي الواقعة وسط مدينة معسكر، أين يوجد ضريحه إلى يومنا هذا⁽⁵¹⁾.

ومن آثاره العلمية، نذكر⁽⁵²⁾:

- مجمع البحرين، ومطلع البدرين، بفتح الجليل، للعبد الذليل، في التيسير إلى علم التفسير.
- الآيات البيّنات، في شرح دلائل الخيرات.
- درء الشقاوة في حروب درقاوة.
- غريب الأخبار عما كان بوهران والأندلس من الكفار.

ج- جزيرة جربة:

وسمّاها الإغريق بجزيرة اللوتس، هذا النبات الذي بحسب زعمهم ذو مفعول سحري على من يتناوله؛ حيث يدخله في عالم من الأحلام. وقد فتح هذه الجزيرة القائد رويغ بن ثابت سنة 45هـ/665م. ومن وقتها لم تسجل كتب التاريخ عنها الشيء الكثير نظراً لانطوائها على نفسها. ومثل سابقاتها من المدن التونسية، تضررت الجزيرة بفعل زحف أعراب بني هلال عليها وغزو النورماندين لها، وهكذا أصبحت تابعة تارة لصقلية، وتارة أخرى لملوك بني حفص⁽⁵³⁾.

حاول ملك أراغون ألفونسو في غضون القرن الخامس عشر ميلادي احتلالها مرتين، غير أن السلطان الحفصي أبا فارس أنجد أهلها في المرة الثانية. ونظراً لأن أهل جربة كانوا كارهين لتبعية المسيحيين والحفصيين على حد سواء، فقد فضلوا الاستقلال بأنفسهم وأرزاقهم فحقق لهم السلطان أبو عمرو ذلك سنة 885هـ/1480م⁽⁵⁴⁾.

ومرة أخرى تضررت الجزيرة؛ بفعل الصراع الإسباني العثماني خلال القرن السادس عشر ميلادي، والذي انتهى بانتصار القائد العثماني درغوث باشا سنة 957هـ/1550م، وبذلك كانت الجزيرة تتبع طرابلس أحيانا، وتونس مرة أخرى، إلى غاية سنة 1040هـ/1631م، أصبحت تابعة لتونس بشكل نهائي. ولكن في سنة 1151هـ/1738م غزا الجزيرة يونس باي، وفي سنة 1202هـ/1794م غزاها علي برغل الطرابلسي⁽⁵⁵⁾.

ورغم انعزال أهل الجزيرة على أنفسهم كما ذكرنا سابقا، فإن هذا لم ينف توجه العلماء المزابيين الجزائريين إليها وبكثرة، ومن بينهم:

1- أبو العباس أحمد بن رمضان المليكي (ت: 1234هـ / 1818م):

هو عالم ومفت من قصر مليكة بوادي مزاب. تنقل إلى جزيرة جربة وعاش بها وتعلم على يد الشيخ أبي عبد الله محمد بن يوسف المصعبي المليكي (ت 1207هـ/1793م)، وتولى التدريس بجامع قايد البلد بجربة⁽⁵⁶⁾.

2- أبو زكرياء يحيى بن صالح المعروف باسم "عمي يحيى" (ت 1202هـ / 1788م)

هو واحد من كبار العلماء والمشايخ الفقهاء في منطقة وادي مزاب جنوب الجزائر، والباعث الأول للنهضة الحديثة في المنطقة. ولد سنة 1126هـ/1714م في بني يزقن بوادي مزاب، وفيها تلقى مبادئ العلوم. وبعد فترة شد الرحال إلى جزيرة جربة، ومكث بها اثنتي عشر سنة منشغلا بطلب العلم؛ أين تلقى العلم بداية على يد مشايخها، ثم لازم

بعد ذلك الشيخ أبا يعقوب يوسف بن محمد المصعبي المليكي (ت 1188هـ/1774م)؛ نزيل جربة، ثم رحل بعدها إلى مصر أين لازم دروس بالمدرسة الإباضية، ودروس بالجامع الأزهر⁽⁵⁷⁾.

بعد ذلك عاد إلى مسقط رأسه في منطقة وادي مزاب في حدود سنة 1157هـ/1744م، وشرع في إرساء نخضة علمية عن طريق التعليم والإرشاد والوعظ، حتى أن منزله تحول إلى مدرسة تخرجت منها جحافل الطلبة، الذين قادوا الحركة الإصلاحية في منطقة وادي مزاب وورقلة ووادي ريغ، و منهم: ابنه موسى، والشيخ ضياء الدين عبد العزيز الثميني، وإبراهيم بن بيحمان، وحمو والحاج اليزقني (اليسجني)، وأبو يعقوب يوسف بن عدون، وبابه بن أحمد الغرداوي⁽⁵⁸⁾.

أما عن آثاره العلمية، فقد ترك الكثير من الرسائل والحواشي والشروحات. توفي الافضلي في 25 رجب 1202هـ/1 ماي 1788م ودفن في مقبرة باسّة وافضل⁽⁵⁹⁾.

3- أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد المصعبي المليكي الجربي (ت

1207هـ / 1792م):

هو محمّد بن يوسف المصعبي المليكي أصلاً، الجربي مولداً ونشأة ووفاة⁽⁶⁰⁾. وهو من مشايخ المذهب الإباضي، الذين لم يكتفوا بأخذ العلم في بلادهم، بل فضّلوا السفر للاستزادة من أجل ذلك.

ولد عام 1079هـ/1669م بقصر مليكة بمنطقة وادي مزاب جنوب الجزائر. وسافر بعد ذلك إلى جربة بصحبة والده سنة 1103هـ/1692م، أين أخذ العلم عن

مجموعة من المشايخ، نذكر منهم: الشيخ يحيى بن سعيد الجادوي، والشيخ سليمان بن محمد الباروني، والشيخ عمر بن علي السديوكشي. ومنها خرج إلى مدينة تونس ليستزيد من العلم، وعرج بعدها إلى مصر، حيث حضر دروسا بالأزهر، ولما عاد إلى جربة أصبح مفتيا ومدرسا في مساجدها، ولكنه كان أكثر ملازمة لجامعها الكبير. خلف مجموعة من الكتب المخطوطة، نذكر منها (61):

- شرح لقصيدة تحريض الطلبة، لأبي نصر فتح بن نوح الملوشائي.
- حاشية على الإجازات، وهذا الكتاب منسوب ليحيى الجناوني.
- حاشية على كتاب تبيين أفعال العباد، للشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر، لم يكملها.
- رسائل وفتاوى وأجوبة، في مختلف الفنون الشرعية.

ومن خلال هذا البحث، يتضح لنا بأن تونس كانت تجمع وفود الحجاج من مختلف نواحي بلاد المغرب، وهم جميعا في وجهتهم يقبلون على اقتناء زادهم وكل ما يحتاجونه في سفرهم، وذلك باعث لازدهار الحركة التجارية ونفاق بعض الأسواق التونسية، ومحرك اقتصادي في هذا الموسم.

كما أن هجرة العلماء والطلبة الجزائريين إلى تونس، قد عرفت نشاطا بارزا خلال العهد العثماني، ويعود ذلك لدوافع عديدة، منها ما هو تعليمي، ومنها ما هو سياسي أو اجتماعي أو ديني، دفعت برجال العلم وطلبته بالجزائر إلى الهجرة نحو تونس كغيرها من الأقطار العربية والإسلامية؛ يقصدونها إما لأخذ العلم منها، أو نشره فيها، أو مجرد الزيارة

بمناسبة تأدية فريضة مناسك الحج، أو للتعرف على علمائها وتبادل الأفكار والآراء والكتب معهم.

فهي في حقيقة الأمر؛ صور من الروابط الثقافية والاعمار المتبادل بين العلماء والطلبة للمراكز الثقافية المتعددة في البلدين. وهذه الصور صور لا صبغة رسمية لها، ولا معاهدات تحددها، وإنما أتت طبيعية وعفوية، فرضتها عناصر الترابط الأصلية بين البلدين. كما أن هؤلاء العلماء الجزائريين الراحلين إلى تونس من أجل التحصيل كانوا بالمقدار الذي يتعدّر على الباحث تتبّعه واستقصاؤه. وأن رحلات هؤلاء التواقين إلى التحصيل، لم تكن محصورة في منطقة واحدة، بل انطلقت من ذلك الإحساس الضاغظ في تلك الفترة من مختلف المدن الجزائرية باتجاه الحواضر العلمية في الأقطار المشرقية والمغربية.

هوامش البحث:

1. الرحلة"، جمعها رحلات. وقد ورد في لسان العرب لابن منظور أن الرحلة تعني: "الترحيل والرحال، يقال رحل الرجل إذا سار، وأرحلته أنا. ورحل رحول وقوم رُحِل: أي يرحلون كثيراً، ورجل رحال: عالم بذلك مجيد له". وورد لفظ رحلة عند ابن منظور بمعنى الانتقال من مكان لآخر "والترحل والارتحال: الانتقال، وهو الرحلة. والرحلة اسم للارتحال للمسير" والرحلة بالضمّ الوجه الذي تأخذ فيه وتريده. كما تعني السفرة الواحدة. للمزيد ينظر: أبو الفضل جمال الدين المعروف بابن منظور: لسان العرب، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف القاهرة (د.ت)، المجلد 03، ج 18، ص 1609م. ولمعرفة أنواع الرحلات ينظر: مولاي بالحيمسي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط 1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1981، ص 10-12.

2. محمد بوشناني: "هجرة العلماء الجزائريين إلى المغرب الأقصى وبلدان المشرق العربي خلال العهد العثماني (1520-1830)", في مجلة المواقف للبحوث والدراسات قى المجتمع والتاريخ، تصدر عن جامعة معسكر، المجلد 04، العدد 01، ص 99.
3. يراجع على سبيل المثال: الحسين بن محمد الوثيلاي: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تحقيق وتقديم محمد بن أبي شنب، مطبعة بيبير فوتانا الشرقية، الجزائر 1908.
4. أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1998م، ج 1، ص 177. ولم يقتصر التأليف في الرحلة الحجازية، على المغاربة والعرب المشاركة، بل ألف علماء شعوب إسلامية كثيرة في هذا النوع من الكتابة، نذكر منهم بعض الأتراك مثل أوليا جلبي (حج عام 1631م)، ويوسف نابي (حج سنة 1678م)، وعبد الرحمن حبري، ومحمد أديب الذي حج سنة 1779م). للمزيد ينظر: بنحادة عبد الرحيم: العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء المغرب، ط1/1429هـ-2008م، ص، ص 245، 250.
5. صالح بوسليم، محمد الزين: "ملاحم من الحياة العامة بالجزائر في بعض كتب الرحلات المغربية خلال العهد العثماني"، في مجلة الحوار المتوسطي، تصدر عن مخبر البحوث والدراسات الاستشراقية في حضارة المغرب الإسلامي، العدد الخاص المزدوج: 10/9، سبتمبر: 2015 مكتبة الرشاد للطباعة والنشر، ص 84-85.
6. أبو راس محمد بن احمد الناصري المعسكري الجزائري: نبأ الإيوان بجمع الديوان في ذكر صلحاء مدينة القيروان، تقديم وتعليق محمد الحبيب العلاني، وسهيل الحبيب، قدم له بالفرنسية محمد علي الحبيب، منشورات مركز الدراسات الإسلامية، القيروان 2012م، ص 12.
7. صالح بوسليم، محمد الزين: المرجع السابق ص 84.

8. الإجازة في الأصل من طرق نقل الحديث وتحمّله، وتعد بمثابة الشهادة العلمية التي يمنحها الشيخ للطالب، لأنها تجيز له أن يدرّس العلوم التي تلقّاها عن شيخه. ولها أنواع مفصّلة في كتب العلم، وقد تساهلوا فيها فيما بعد وتوسعوا في استعمالها في سائر العلوم، وضعفت مصداقيتها الأولى، ومنحت بالمراسلة دون لقاء ولا مدرسة، ولكنها ظلّت تُعبّر في الغالب عن كفاءة المجاز للدخول في عداد العلماء، واحتفظت بعض الإجازات بقيمتها العلمية العالية. حول الإجازة ينظر: ابن الصلاح أبو عمر عثمان بن عبد الرحمان الشهروري: **علوم الحديث**، حقه وخرج أحاديثه وعلّق عليه: نورالدين عتر، ط02، المكتبة العلمية، المدينة المنورة 1972م، ص 134-146. صلاح الدين المنجد: "إجازات السماع في المخطوطات القديمة"، في مجلة معهد المخطوطات العربية، مج01، القاهرة نوفمبر 1955م، ص 232-251. وهو بحث خاص بنوع معين من الإجازات العلمية.

9. الطاهر حسيني: **الرحلة الجزائرية في العهد العثماني بناؤها الفني أنواعها وخصائصها**، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراه العلوم في الأدب العربي، بإشراف أ.د/العبد جلولي، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، السنة الجامعية 1434-1435هـ/2013-2014م، ص 85.

10. يراجع: رحلة عبد الرزاق بن حمادوش: **المسماة** "لسان المقال في النبأ عن النسب والحال"، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1984م.

11. اعمرراوي حميدة: **قضايا مختصرة في تاريخ الجزائر الحديث**، دار الهدى للطباعة والنشر، عين مليلة، الجزائر 1426هـ/2005م، ص 60.

12. ينظر: أحمد توفيق المدني: **حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا**، ط3، المؤسسة الوطنية للطباعة، الجزائر، 1984م، عمار بن خروف: **العلاقات بين الجزائر والمغرب 1517-**

1659م، رسالة ماجستير في التاريخ، قسم التاريخ، جامعة دمشق سوريا 1983، ص21-22.

13. Moulay Belhamissi: **histoire de la marine algérienne (1518 – 1830)** , 2é édition e.n.a.l Alger 1986 p 20 et p31.

14. أحمد الحمروني: **خمسون مدينة تونسية**، دار سحر للنشر، تونس 2012م، ص 139.

15. الحسن بن محمد الوزان الفاسي: **وصف إفريقيا**، تعريب: محمد حجي، وآخرون، جزآن ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1983م، ج1، ص71.

16. أحمد الحمروني: المرجع السابق.

17. أو الحماديون نسبة إلى حماد بن بلكين مؤسس الدولة الحمادية، وقد حكمت بين عامي 408هـ-1018م و 547هـ-1142م. للمزيد ينظر: رشيد بوروية: **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1397هـ/1977م، ص3.

18. أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص40.

19. أو النورمان وهم قوم انحدروا من شمال أوروبا نحو جنوب القارة وشرقها، وقاموا بالعديد من المحاولات لاحتلال القسطنطينية وفرنسا وإنجلترا، باءت بعضها بالفشل، ولكنهم مع ذلك نجحوا في غزو جزيرة صقلية سنة 1101م بقيادة الملك روجر الثاني أو الحكيم، الذي كان متسامحا مع المسلمين وبذلك استمرت فترة الرخاء والازدهار التي كانت قبل غزوه للجزيرة. للمزيد ينظر: أحمد توفيق المدني: **المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا**، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1969م، صص، ص29، 27.

20. أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص40.

21. محمد الصالح الجابري: النشاط العلمي والفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962، الدار العربية للكتاب والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1983م، ص ص 23-27.
22. عبد الوهاب حسن حسني: خلاصة تاريخ تونس، تقديم وتحقيق: حمّادي السّاحلي، دار الجنوب للنشر، تونس 106، 2015.
23. جميلة معاشي: الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق الجزائري من القرن 10هـ/ 16م إلى القرن 13هـ / 19م. دراسة اجتماعية سياسية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، جامعة منتوري قسنطينة 1991، ص 233.
24. عادل نويهض: معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى الوقت الحاضر، ط2، مؤسسة نويهض الثقافية، بيروت 1400هـ/ 1980م، ص 255.
25. المرجع نفسه.
26. عبد الكريم الفكون: منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق: أبو القاسم سعد الله، ط1، دار الغرب الإسلامي بيروت 1408هـ/ 1987م، ص 43-44.
27. أبو القاسم محمد الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، جزآن، مطبعة بيبير فونتانة الشرقية، الجزائر 1324هـ/ 1906م، الجزائر، ج1، ص 79.
28. المرجع نفسه.
29. المرجع نفسه، ج1، ص 83.

30. عمار هلال: علماء الجزائر في تونس فيما بين القرنين الرابع عشر والعشرين الميلاديين، في مجلة الدراسات التاريخية، عدد 11 و12، دار الحكمة، الجزائر 2001، ص 62 .
31. عادل نويهض: المرجع السابق، ص 191
32. أحمد بن قاسم البوني: الدرّة المصونة في علماء وصلحاء بونة، تقديم وتحقيق: أ.د سعد بوفلاقة، منشورات بونة للبحوث والدراسات، عنابة، 1428هـ/2007م، ص 12.
33. أحمد بن قاسم البوني: المصدر نفسه، ص 13.
34. المصدر نفسه.
35. وهي القصيدة من بحر الرجز. والجمع أراجيز. ينظر: شعبان عبد العاطي عطية، وآخرون: المعجم الوسيط، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، 1425هـ/2004م، ص 330.
36. هو محمد بن أبي الحسن نور الدين علي بن محمد القرشي النسب، النكداني دارا ومنشأ. وهذه الصفة نسبة إلى بلدة نكداء (Negde) المدينة التركية الصغيرة الواقعة بين اسطنبول، وأنقرة. أما بكداش وهو لقبه فيعني الحجر القاسي. نشأ في موطنه نشأة علمية دينية. وعندما وفد إلى الجزائر ضمن سلك الإنكشارية سنة 1086هـ/1657م، نزل بمدينة عنابة ولازم الشيخ قاسم المعروف بساسي البوني. أما أولى وظائفه التي تولاهها، فكانت الخطابة بأحد مساجد مدينة الجزائر، ثم تعددت وظائفه بعد ذلك حيث تولى وهمة الدفتر دار، ومن ثم أصبح دايا بعد أن نفذ من مؤامرة حيكت ضده، وكان ذلك سنة 1118هـ/1707م. وبخصوص الأحداث المهمة في عصره، فكانت فتح وهران الأول سنة 1119هـ/1708م. لم يستمر هذا الداي في الحكم طويلا بعد فتح وهران؛ حيث تمرد عليه الجند وقتلوه خنقا سنة 1122هـ/1710م. للمزيد ينظر: محمد بن ميمون الجزائري: التحفة المرضية في الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم، ط 2، ش.و.ن.ت، الجزائر 1981، ص 114. وعبد

- الرحمن بن محمد الجليلي: تاريخ الجزائر العام، 6 أجزاء، دار الأمة، الجزائر 2014م، ج3، صص، 220، 209.
37. أحمد بن قاسم البوني: المصدر السابق، صص-13-14.
38. المصدر نفسه، ص31.
39. عادل نويهض: المرجع السابق، ص262.
40. المرجع نفسه، ص146.
41. المرجع نفسه.
42. ممدوح حسين علي حسين: الحروب الصليبية في شما إفريقيا وأثرها الحضاري 1270-1390م، ط1، دار عمار للنشر، عمان الأردن 1419هـ/1998م، ص583.
43. التهامي نقرة: القيروان عبر العصور، كتابة الدولة للشؤون الثقافية والإرشاد، تونس 1964م، ص15.
44. محمد زيتون: القيروان ودورها في الحضارة، ط1، دار المنار، القاهرة 1408هـ/1988م، ص75.
45. التهامي نقرة: المرجع السابق، ص15.
46. المرجع نفسه، صص-19-20.
47. J. Henry Dunant: **Notice sur la régence de Tunis**, imprimerie de Jules-Gme Fick, Genève 1864, p.81

48. محمد أبو راس الجزائري: فتح الإله ومُنته في التحدّث بفضل ربي ونعمته «حياة أبي راس الذاتية والعلمية، حقّقه وضبطه وعلّق عليه محمد بن عبد الكريم الجزائري، المؤسسة لوطنية للكتاب، الجزائر 1986م، ص25.
49. عبد القادر بكاري: "الإسهامات الثقافية والكتابات التاريخية لعلماء الجزائر العثمانية أبو راس الناصري أنموذجاً"، في مجلة الخلدونية للعلوم الإنسانية والاجتماعية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة ابن خلدون، تيارت، 2013، ع6، ص118.
50. المرجع نفسه، ص119.
51. المرجع نفسه.
52. محمد أبو راس الجزائري: فتح الإله ومُنته ... المصدر السابق، ص، ص181، 179.
53. أحمد الحمروني: المرجع السابق، ص-ص43-44. ممدوح حسين علي حسين: الحروب الصليبية في شما إفريقيا ...، المرجع السابق، ص477.
54. أحمد الحمروني: المرجع نفسه، ص44.
55. المرجع نفسه والصفحة نفسها.
56. إبراهيم بن بكير بحاز، وآخرون: معجم أعلام الإباضية من القرن الأول الهجري إلى العصر الحاضر قسم المغرب الإسلامي، جزآن، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت 2000م، ج1، ص43.
57. المرجع نفسه، ج1، ص460.
58. المرجع نفسه، ج1، ص461.

59. المرجع نفسه، ج1، ص461.

60. المرجع نفسه، ص406.

61. المرجع نفسه.